القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع للعلامة محمود شكري الآلوسي (دراسة وتحقيق)

أ. م. د. عروبة خليل إبراهيم

المقدمة

تبرز أهمية هذا النص كونه يظهر إحدى أعمال العلامة محمود شكري الآلوسي والتي عثرت عليها في مكتبة الأوقاف عام ١٩٨٤ فقمت بتحقيق النص في وقته واحتفظت به حتى أخرجته اليوم.

ويتكلم عن مدفع صنع في عصر الاحتلال الصفوي للعراق صنعه السلطان العثماني وجاء به من ضمن ما جاء لإخراج إسماعيل الصفوي من بغداد.

قدمت للبحث بسيرة لصاحبه المخطوطة وذكرت في مقدمة البحث وفصوله الأولى ما نقله العامة عن المدفع وسبب صنعه حيث وجدت هذهِ المعلومات في الجرائد والمجلات القديمة والتي اختفت بعد السقوط، فيعد البحث المصدر الأساس الآن في نقل هذهِ المعلومات.

وكذلك درست البحث دراسة بلاغية متحرية أهم خصائص الأسلوب عند الآلوسي في هذه المخطوطة.

ومن أهمية البحث أيضاً أن المخطوطة تبحث بموضوع العقيدة وسلامتها.

الفصل الأول

المبحث الأول: المدفع (طوب أبو خزامة) سبب صنعته وصفته

كما وردت في المجلات والجرائد والكتب:-

١- مجلة لغة العرب العام ١٩١٤م كتب كاظم الدجيلي:-

لما استولى الشاه عباس الصفوي على بغداد في نحو سنة ١٠٣٣هـ-١٦٢٣م. وذلك بعد حصاره إياها مدة ثلاث أشهر. وكان استيلاؤه عليها بخيانة (أبو بكير أغا) فقتل ثم بقي الحكم للشاه ومن يوليه أمرها من رعيته إلى السنة ١٠٤٨هـ.

وذلك أن السلطان مراد خالد العثماني قصدها بجيش جرار كامل العدد والعدة فحصرها في ((٨ رجب سنة ١٠٤٨هـ. ١٥ تشرين الثاني ١٦٣٨م)) وكان يشتغل بنفسه في أعمال الحصار الشاقة تنشيطاً للجند. وسلط على أسوارها المدافع الضخمة التي نقلها إليها ولما فتحت المدافع فتحة كافية للهجوم. أصدر السلطان أوامره بذلك فهجمت الجيوش كالليوث الكواسر (كذا) في صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨هـ=كانون ١ ١٦٣٨م. ولم يثنها قتل الصدر الأعظم (طيار محمد باشا)... بل استمر الحرب ٤٨ ساعة متوالية فتحت بانتصار (الجنود العثمانية) ولما دخل الجند العثماني بغداد وملك زمانها السلطان (مراد خان) ولي عليها من قبله والياً هو (كجك حسن باشا) أو (حسن باشا الصغير) وبعد أن تم ذلك رجع السلطان مراد إلى من حيث جاء وقد ترك المدافع التي أتى بها من الاستانة والتي غنمها من الشاه عباس لينتفع بها عند الحاجة ولتصد عن بغداد هجمات العدو وإلى اليوم تراها مطروحة في قلعة (الطوب خانهل) وقد أخبرنا أحد (ضباط المدفعية) أن الحكومة تريد نقلها إلى الاستانة لتوضع في محل التحف والآثار القديمة(١).

المدفع (طوب أبو خزامة) سبب صنعته وصفته:-

وهذا الطوب (أعني طوب أبو خزامة) مصنوع من الصفر أي النحاس الأصفر (البرنج) والحديد وهو مضطجع على مرقد في وسط الدكة السالفة الذكر(٢).

والمرقد عبارة عن جذع نخل لم تبلها الأيام لأنك تراها على حالتها الأولى في أول وصفها، وللمرقد المذكور دولابان

من الحديد، وقد نزل نصفها في الأرض لمرور الزمن عليهما. ولما عليهما من ثقل بالحديد وعند فوهة (طوبة أبو خزامة) أربعة قنابل محيط كل منها ٢٩سم ويبلغ طول (طوب أبو خزامة) أربع أمتار و ٤٤سم، ومحيطه من مؤخره مترين و ٤سم، ومحيط مما يلي فوهته ١,٤٤سم وقطر فوهته ٤٨سم ومكتوب على ظهره مما يلي فوهته بالحرف المركب البارز ما نصه: (مما عمل برسم السلطان مراد خان بن [كذا] السلطان أحمد خان) ووراء الكتابة المذكورة أربع سمكات صغار وأربعة أنجم ووراءها في الوسط عروتان مقوستان محيط كل منهما نحو ٥٠سم فيها خرق مشدودة ترمز إلى ما يطلبه الزائرون من الأماني وكذلك قل في الخرق المشدودة في السلسلة المتقدم ذكرها وفي جنبه الأيسر (أعني طوب أبو خزامة) مما يلي العروة انخفاض محيطه ٢٨سم وغوره نحو ٣سم ووراء العروتين السالفتي الذكر أربع سمكات كالتي تقدم ذكرها وكذلك خمسة نجوم وهلالان زغيران ووراءه الأسماك والنجوم والأهلة على ظهر الطوب الذي نحن بصدده مما يلي مؤخره مكتوب بالحروف المركبة البارزة ما نَصُّهُ: (عمل على كنخذاي جنود برد ركاه عالي سنة ١٠٤٧هـ معناه عمل على الذي هو رئيس الجنود في الباب العالي أي باب السلطان) وقد ساعدنا على قراءة الكتابة المذكورة وتعريبها شكري أفندي الفضلي. وفي مؤخره شبه ذنب ينتهي بكتلة مخروطة الشكل وفي فوهته مما يلي داخله صدع (أي شق طبيعي) غير سوي(٣).

طوب أبو خزامه: تاريخ سنة ١٠٤٧هـ-١٦٣٨م.

كما ورد في كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين) لعباس العزاوي:-

فتحت بغداد على يد السلطان (مراد الرابع) في ٢٣ شعبان، فنظم شؤون بغداد، وفي ٢٥ منه عهد ببغداد إلى كوجك حسن باشا، وفوّض القضاء إلى مصطفى التذكره جي، وأوعدت وظائف أخرى لموظفين آخرين، وفي عهده انصرف إلى تأسيس النظام وتشكيل الإدارة وتقريبها ولو بصورة مصغرة من إدارة الدولة وتشكيلاتها، وجعلها مدينة كمدن الدولة.

جرت في أيامه الطمأنينة وعاد الفارون من حكم العجم إلى أوطانهم فآبوا من غربتهم ومن ثمَّ تكونت العمارات، وعمرت المساجد، أعيدت بغداد إلى ما كانت عليه من إقامة الصلوات والجمع.

ومن أهم الأحداث، الفتح بعد المقارعات العظيمة كبدت الدولتين خسائر فادحة في الأموال والنفوس فكانت المدونات عنها كثيرة. ولعل من بقايا ذكرياتها مدفع أبي خزامة، وكان من مدافع الفتح. ولعله قام بخدمات كبيرة في تسهيل هذا الفتح، فصار يُعدّ مباركاً محترماً في نظر العوام من الأهليين، ويعين شعورهم الصادق.

وربما نسبت للسلطان كرامات، ولم يدر هؤلاء أنه كان شجاعاً، قوي الإرادة في قهر من وجد منه ضرراً للدولة وله، أو رآه لم يتورع في انتهاك حرمات الأمة بل قسا تلك القسوة الجائرة ولعل ما ظهر من عظمته في حرب بغداد وتمكنه من إنقاذ الناس بما بذل من أموال ونفوس خلدت له الذكر الجميلة فاشتهر صيته فلا يصحُ أن تعزى له كرامة ولا لمدفعه. ولكن العوام يزعمون أن مدفعه (أبا خزامة) كان يلتهم الأحجار والصخور وتظهر منه قذائف صبت على رؤوس الأعداء وابل من البلاء كما أن النساء تأتي بالأطفال للاستشفاء من الأمراض بعرض الأولاد على فوهته وكان أنفاسه تمد ببركاتها الشفاء وهكذا تعقد العُقدَة للبركة.. والعامة لا قياس لتفكيرهم فلم يُوجهوا ولم يردعوا عن هذا المنكرات الخرافية المضرة بالعقيدة الحقة.

ولا يزال العوام في ضلال فيضطر من العلماء إلى مداراتهم وكان القول قولهم والمتابعة من العلماء واجبة فلم ينه العلماء عن منكر فعل العوام، أو لا يتناهون عن منكر فعلوه. وأحسنت الدولة العراقية الحاضرة في رفعه عن أنظار العامة ووضعته في متحف الأسلحة. والأمر المهم أن هذا كان من ظواهر الفرح في النفوس أثر الفتح(٤).

المبحث الثاني: نبذة عن حياة العلامة محمود شكري الآلوسي:

اسمه ونسبه: هو جمال الدين أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله بهاء الدين بن أبي الثناء شهاب الدين محمود الحسيني الآلوسي البغدادي(٥).

ولد يوم السبت ١٩/رمضان ١٢٧٣هـ الموافق ١٤/آيار ١٨٥٦ في رصافة بغداد(٦) في دار أسرته في محلة العاقولية. وقد أخذ مبادئ العلوم الإنسانية والدينية عن أبيه عبدالله بهاء الدين، وجود عليه الخط بأنواعه المستعملة آنئذ في العراق، وورث منه فقه النفس، وحسن السمت، وصفاء الطوية، وحب الأدب والعلم.

ولم يكن يستنفدْ ما عنده حتى فجع بموته في ٣/شعبان/١٢٩١هـ. إذ فارقه وهو لما يزل في سن الصبا(٧).

فكلفه عمه العلامة نعمان خير الدين الآلوسي(٨)، وعُني بتهذيبه وتعليمه عناية أبيه به، ووجهه إلى الدرس والتحصيل، وبعد أن ختم تلاوة القرآن الكريم، وأجاد القراءة والكتابة، أخذ يختلف إلى شيوخ العلم في مجالسهم، وقد كشف خلال دراسته عن ألمعية وذكاء، ففاق أترابه في هضم الدروس المختلفة وتفهمها، وبز أقرانه في جودة الخط، وبراعة النسخ، وما هي إلا فترة حتى أهلته مواهبه للتدريس فقد ذاكر في علم المنطق أشهر علماء عصره الشيخ عبد الرحمن القرداغي سنة ١٣٠٣هـ(٩).

وقد تصدر محمود شكري للتدريس في داره بالعاقولية مدة، ثم انتقل إلى جامع عادلة خاتون، ثم عين مدرساً رسمياً في مدرسة داود باشا – آخر وزراء المماليك ببغداد – في جامع الحيدر خانة، بعدها أضيف إليه التدريس في مدرسة جامع السيد سلطان علي، فيذهب إلى الأول في الصباح، ويعود إلى الثاني في المساء.

ولما توفي العلامة علي علاء الدين الآلوسي مدرس مدرسة مرجان الشهيرة وُكِّلَ أمر مدرسته إليه لقرابته منه، وجعل رئيس المدرسيون بها سنة ١٣٤٠هـ.

فترك مدرسة السيد سلطان علي لابن أخته السيد إبراهيم ثابت الآلوسي والذي عين بعد وفاته مدرساً في مدرسة مرجان.

وقد اكتفى محمود محمود شكري بالتدريس في جامع الحيدر خانة ومرجان(١٠).

وقد عرف عنه الزهد والتواضع وكثرة الحياء.

ومن الأقوال المأثورة: من تفقه ولم يتزهد فقد تزندق.. لذلك كان الآلوسي من أشد علماء عصره وزهداً، ومن أكثرهم تُقى، وحسبك بمن يطلب إليه تولي منصب ((قاضي القضاة)) فيأباه انفة وزهداً، ثم يُهدى إليه الذهب فيعفه ويطرد من حمله إليه... ومن أظهر تلامذته: الشاعر معروف الرصافي (ت ١٩٦٩م). والشيخ محمد بهجة الأثري، وعبد العزيز الرشيد، والأخوة الشعراء الهاشميون: عبد الرزاق (ت ١٩٦٤م) ورشيد (ت ١٩٤٣م) ومحمد (ت ١٩٧٢). وسليمان الدخيل النجدي (ت ١٩٤٦م) ومحمد ابن مانع النجدي (ت ١٣٨٥هـ).

كان الآلوسي من المصلحين الذين يصدعون بالحق ولا يخافون في قولته لومة لائم، أو عقوبة سلطان.. فأخذ من الدرس والكتاب وسيلة لبث ما يعتقد، والتف حوله المؤمنون بمناهجه في العقيدة والحياة.

وكانت عقيدته عقيدة السلف الصالح، آمن بمثل ما آمنوا، وعمل بما كانوا يعملون وشرعتهم التي عنها يصدرون، القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وما صح عند الصحابة والتابعين. لذلك شغل عليه أهل المروق والباطل، فشنّعوا عليه.. عند السلطان العثماني.. الذي وجد إذناً صاغية لدعاواهم.. لأنه كان يجهرُ بالحقّ، ويحارب البدع، ويبث الإصلاح، فاتفق أن تولى: عبد الوهاب باشا ولاية بغداد.. إذ وصلها في يوم الجمعة ٨ شوال ١٣٢٢هـ، الموافق ١٩٠٤/١٢/١٦م. فتلقاهُ هؤلاء الحاقدون على الحق والإصلاح بالشكوى من الآلوسي، ولفقوا عليه دعوه بث الدعوة ((الوهابية)). وهذه التهمة كانت تكفي للإيقاع بصاحبها، لما يضمره السلطان التركي من عداء لها ولأصحابها، وهو عداء سياسي محض.

فكتب الوالي عبد الوهاب بذلك إلى استانبول، فجاء منها بنفسه هو ابن عمه محمد ثابت بن نعمان خير الدين الآلوسي، وشاكر الآلوسي، والحاج احمد العساف (أحد أصحاب الآلوسي ومن تجار نجد). فغادروا بغداد (مخفورين) يحرسهم الجند إلى بلاد الأناضول، وذلك في ٢٢/المحرم ١٣٢٣هـ الموافق ١٩٠٥/٣/٢٩م، ولما وصلوا مدينة الموصل في ١٩٠٥/٤/١٢م. حدثت ضجة كبيرة عند أهل الموصل(١١)، فهبَّ علماؤها وأهل الإصلاح فيها عن سخطهم لنفي الآلوسي وصحبه، فما كان من السلطان العثماني إلا أن نزل عند رغبتهم وأجابهم على مطلبهم.. وحينها حلّ الآلوسي وجماعته ضيوفاً في دار السيد حسن فائق بك ((رئيس بلدية الموصل الأسبق)) وتلقى أهالي الموصل خبر إعادة الآلوسي إلى بغداد بالفرح الغامر.. فنشرت جريدة ((الموصل)) بعددها الصادر في ((يوم الخميس ٤ ربيع الثاني ١٣٢٣هـ الموافق ٨ آيار ١٩٢٤م))، وقد عاش سبعاً وستين سنة شمسية، إلا مسجد الجنيد... ولم يعقب، إذ لم يتزوج.

وأقيمت له مجالس العزاء ((الفواتح)) في القطر العراقي، وحفلات التأبين في الكويت ودمشق، وصلى عليه أهل نجد صلاة الغائب، يأمر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، فرثاهُ الشعراء وأَبنَّهُ الأدباء، ونعاه أهل الفضل والعلماء.. وجمعت تلك القصائد والمقالات والرسائل في كتاب ((أعلام العراق ص: ١٥٦-٢٤١))(١٢).

وممن رثوه من الشعراء ناجي التشطيني بقصيدة أنشدها في حفلة

التأبين ببغداد مطلعها(١٣):-

لا السجنُ يبكينا ولا التبعيدُ

كلا ولا الإرهابُ والتهديدُ

سنظل نهزأ بالخطوب تَجلدًا

مهما استمرَّ الضغط والتشديدُ

وقال:-

أحييت بالتنقيد ميت عقائد

مامَسَّها فحص ولا تنقيدُ

ثم قال:-

لم يُثنكَ الحكامُ عن ارشادنا

حتى أحاطت في حماك جنودُ

ونفيت عن بغداد غير مروّع

حاشا تُراع من الذئاب أسودُ

ولكم أهين المصلحونَ لغاية

فنيَتْ وهم في العالمين خلودُ

الفصل الثاني

المبحث الأول: ما قيل حول رسالة محمود شكري الآلوسي: ((القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع)).

١- ما أوردته مجلة لغة العرب في ص: ٤٩٨-٤٩٩:

وقد سمعنا من أحد الثقات أن حضرة أستاذنا الشهير العلامة الكبير السيد محمود شكري أفندي الآلوسي صاحب التأليفات الجليلة، كان قد وضع في عهد مشيرية هدايت باشا رسالة سماها ((القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع)). وقد كان قدمها إليه ليمنع العوام مما هم عليه من الاعتقاد الفاسد في هذا المدفع المغاير لما جاءت به شريعة الإسلام، وبحث فيه عن تأريخه والمفاسد التي تنجم عن هذه المعاملة: الرسالة تقع في نحو عشر صحائف وترجمت إلى اللغة العثمانية.

وقد فقدها السيد الأستاذ منذ سنين فلا يعلم أين صارت، ولعلها توجد يوماً فتُنشرُ بالطبع فيعمُ نفعها الكبير والصغير والله الميُسّر(١٤).

٢- الرسالة كما وصفها د. عبد الله الجبوري في كتابه المسك الأذفر ص٣٣، قال فيها:

رسالة لطيفة، عالج فيها موضوع (المدفع) الموجود الآن في بغداد (في ساحة الميدان، قرب وزارة الدفاع العراقية)، وهو من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس لإخراجهم من بغداد.

للعامة من أهل بغداد معتقدٌ فاسدٌ فيه، حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون إطلاق ألسنة أطفالهم عنده.

وهو يُعرف عندهم بأسم ((طوب أبي خزامة))... كتبها الآلوسي ليردع هؤلاء من زيارته وقدمها إلى المشير، هداية (هدايت) باشا، أحد وزراء بغداد، ترجمت إلى اللغة التركية، ومن الأصل نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، برقم (١٣٧٩٩/٥ مجاميع) في ثلاث ورقات(١٥).

وصف المخطوطة كما أطلعتُ عليها:

فضلاً عمّا ذكرته في الآراء السابقة أقول فيها:

رسالة تتكون من ٧ صفحات، عدد الأسطر في كل صفحة تقريباً ١٩ سطراً، ويحتوي كل سطر على نحو تقريبي (١١) كلمة، وبعضها (١٥) كلمة.

خطّ المخطوط كان واضحاً ومتناسقاً، وإن لم أستطيع الجزم بأن المخطوط بيد صاحبه أو غيره، ونستطيع أن نتبين شخصية المؤلف ((محمود شكري الآلوسي)) التي تؤيد مذهبه في الحياة وما بعدها.

كذلك تظهر شخصيته في استخدام المعاني القرآنية في نثره وأسلوبه الجزل والمتين مع السلاسة والجمال.

وقد ذكرت مجلة لغة العرب عن المخطوطة أنها تتكون من عشر صفحات وأنه تكلم فيها عن محل صنعه وغيرها ولكن المخطوطة التي وصفها د. عبد الله الجبوري، والتي وصلت ليدي كانت متكونة من ٣ أوراق (٧ صفحات فقط).

وربما تكون قد فقدت بعض صفحات منها في البداية وربما وصفها في مجلة لغة العرب غير صحيح، أو إن كتابتها في المرّة الأولى كانت بسعة بحيث أحتوت عشرة صفحات.

ويبدو أن المخطوطة الحالية لا تفتقر إلى زيادة فهي ذات تسلسل منطقي رائع ومرتب بشكل يبين الغرض من وراء إنشائها.

المبحث الثالث: نص المخطوطة المحقق:

الحمدُ لله الذي يَسَّرَ مَن اختارهُ لنُصْرَة دينه إلى الدّرجات العليّة وَوَفَّقَ مَنْ حافظَ على شَريعتَه الغَرَّاء، ومحَجَته(١٦) البَيْضاء، إلى السعادَة الأبجديّة.

فسبحانَهُ من إله رضي لنا الإسلامَ بكمالِ منتَّه(١٧) وأَوَضَحَ لنا قَواعدَ دينه وَملَّته(١٨) والصلاة والسلامَ على سيَّدنا محمد، الذّي أمرنا بإتباع السنَّة، وأختار لنا مِن كلِّ أمرٍ أَحْسَنَهُ، وبالغ في الإنذار وإخلاص التوحيد، وأجتهدَ في

قصر العبادة على الملك المجيد وعلى آله وأصحابه الهادين بهديه والمتأدبين بآدابه.

أمّا بعدُ، فهذهِ رسالةٌ سميتها (القولُ الأنفعُ في الردّع(١٩) عن زيارة المدفع)، وأسأل الله تعالى أنْ يرفق(٢٠) بها النفع التامَ، لسائر أخواننا المسلمين الخاصَّ منهمُ والعامَ، فأقول: الله تعالى:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٢٣).

وروى العرباض بن سارية السلمي (عن النبي (أنه قال: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجد(٢٤)، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار))(٢٥)، رواه أبو داود والترمذي، وقال حديثٌ صحيح، ورواه ابن ماجه، وقال فيه، قال (: ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك))(٢٦)، وروى أبو هريرة (، قال: قال رسول الله (: ((إنيّ خلفتُ فيكم ما لم تضلّوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولنْ يفترقا حتّى يردا على الحوض)).

فَقَدْ نَهَى اللهُ تَعالى مَعَ رسوله عن آتباع غير سبيلهِ وأمر بالتجنبِ عَنْ البِدَعْ ومحدثاتِ الأمور، والفرار من الفتن والشرور، فخيره أمورُ الدين ما كان سنَّة، وشر الأمور المحدثات البدايع(٢٧)، وقد كثرت البدع والأمر لله تعالى في زماننا هذا حتى غدت البدعة متبعة مستحسنة والسنة منفورة غير متبعة، ثم إن من البدع ما لا يمكن دفعها وإزالتها إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، ومنها يمكن ولكن بعد تحمل مشاق، وارتكاب شدائد مالا يطاق إلا إذا أعان على ذلك بعض أولي الأمر من الأمراء(٢٨)، والعلماء الفضلاء، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، المتبعين سنة سّيد البشر، مثل حضرة مشير العراق، ومن أُلبس من سندس(٢٩) رأفته ما رَقَّ(٣٠)، وَرَاقَ(٣١)، الذي لم يسبق له في الأعصر الماضية مثيل، ولم يشابهه في المآثر(٣٢)، إلا قليل، فوطَّد ومَهَّد، وأطلق وقَّيد، وأغمدَ وجَرَّد، وترك الأنام في فراش الأمن نيام، وجعل الشاة مع الذيب كالحبيب مع الحبيب، وأعاد الضعيف قويّاً والبغّي رديّاً، معَ مزيد تقوىً ودَيانة، وعفَة وصيانة، وحلم ووقار، وفتْك واقتدار، أعنّي به المُشير الذيً أشارَتْ(٣٣) إليه الجلالةَ بالبنانِ(٣٤)، وميَزَتهُ الفخَامةُ عن الأقرانِ حَضْرةِ الطود(٣٥) الأقوم(٣٦)، هدايت باشا(٣٧) المفّخَمَّ، لا زال مُسدَّداً بالعنايةِ الربَّانية، ولا برحَ مشمولاً بالألطاف الصمدّانية(٣٨)، وأنا أعرض إليه، لا زالت المنن نهلة عليه، إنَّ المدفع الذّي أمام القلعة المعمورة ومسكن الجنود المنصورة، أيَّدهم الله تعالى وشيّدهم ومكنهم من أعدائهم وسددهم، وقد اتخذه عوام المسلمين قبلة آمالِهم ومرجعاً عند نزول نوائبهم وأهوالهم، فتراهم يطوفون حوله كما يطوف الحجيج حول الكعبة المبجلة، وينذرون النذور كما ينذرون لله الغفُور. ويتذللون إليه، ويظهرون الخضوع، ويوقدون فيه السرج والشموع، ويعقدون بالسلسلة المحاطة به، رقاعاً شتى ويلهجون بندبه(٣٩)، فما من مولود يولدُ إلا ويأتون به إليه، ويكلوا(×) أمر ذلك الصبي عليه ويزعمون أنهم إذا لم يأتوا بذلك المولود إلى ذلك المحل، أيسوا من خيره، وخاب منهم الأمل، كما كان يفعل عبدة الأصنام، من المشركين الطغام(٤٠)، وإذا نهاهم أحدٌ اتخذوا قولهُ فريّا(٤١)، واتخذوا مكاناً شرقياً، مع أنَّ ذلك المدفع، الذي لا يضر ولا ينفع واقعٌ بين أملاء(٤٢) من المسلمين وفي طريق كُلِّ أحد من المارين، حتى لم يخف ذلك الأمرُ الخطر، بل علمهُ الكبيرُ والصغيرُ، والغفلةُ في مثل هذه الأمور توجب في السلام وهناً، ويجلبُ على الدين المبين طعناً، فالمتمنّى من ذلك المشير، والدستور الكبير، القائم على ساق الهمم والعزائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم أن يحول ذلك المدفع إلى محد(٤٣) لا يصله أحدٌ من الناس. ولا يتمكنون إليه من مساس ويروعهم من الوصول إليه، ويمنعهم من الوفود عليه، لينال من الله الجليل، الأُجر الوافر، والثواب الجزيل، وليقتد بما فعل عُمر بن الخطاب (فقد أمر بقطع الشجرة التي بايع(×) الصحابة تحتها بيعة الرضوان لمّا رأى الناس يتناوبونها(٤٤) ويصلُّون عندها كأنها المسجدُ الحرام أو مسجدُ المدينة.

وأبلغُ منَ ذلكَ ما رواه البُخاري في صحيحه من طرفين، الأول عن عباس بن ربيعة عن عمر أنه جاء إلى الحجر فقبلَّهُ، وقال: ((إنّي لأعلمُ أنكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع ولولا إنيّ رأيت رسول الله (يقبلك ما قبلتك))(٤٥)، والثاني عن زيد بن أسلم(٤٦) عن أبيه، قال رأيتُ عمر بن الخطاب يُقبِّلُ الحجر، وقال: ((لولا

أني رأيتُ رسول الله يُقبلك ما قبلتك)) (٤٧)، مع أنّ شهادة الحجر لأصل الإيمان والتوحيد ثابتة. كما روى عُمر (، إن النبي (استقبل الحجر ووضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ثم التفت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: ((يا عمر ههنا تسكب العبرات)) (٤٨)، رواه ابن ماجة.

وروى مسلم عن ابن عباس أن النبي (استقبل الحجر فقبّله(٤٩)، واستلامه والبكاء عنده لا يخلو ذلك عن حكمة، ولو لم يكن إلا أنّهُ يمينُ الله في أرضه وشهادته لأهل توحيده لكان يكفي في فضله وذلك لا يقتضي اعتقادُ النفع والضرِّ، لا بطبعه ولا بقوته، فلا يُدعى ولا يُرجى ولا يتوكل عليه، وشهادتُهُ وشفاعتُهُ ليستا بأفضل ولا أكمل ولا أتم من شهادة الرسل وشفاعتهُم، ومع ذلك لا يُعتقدُ فيهُم الضّرُ(٥٠) ولا الإعطاء ولا المنعُ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (٥١)، فالحجر أولى بعدم الاعتقاد فيه إذ الأمر كُلُّه لمالك الملك وهو الله، الذي خلق الرسل وفضّلهم على سائر الخلق وخلق الأرض وما فيها من الآيات الدالة (على) إلوهيته. وتفرّد بُملك الضَّرِّ والنفع والإعطاء والمنع وأغربُ من ذلك ما روى خالد بن دينار(٥٢) قال: ((لما فتحنا تتر وجدنا في بيت مال الهمذان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب (فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأتهُ مثل ما أقرأ القرآن، قال خالد فقلت لأبي العالية ما كان فيه، قال سيرتكم وأموركم، ولحون(٥٣) كلامكم، وما هو كائنٌ بعد، قلتُ: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناهُ. ووا‌سينا القبور كلَّها مع الأرض، حتى لا ينبشوه، فقلتُ: وما يرجون منه. قال: كانت السماء إذا حُبست(٥٤) عنهم أبرزوا السرير فيمطرون، فقلتُ: من كنتم تظنون الرجلَّ؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلتُ: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلتُ: ما كان تغير منه شيءٌ؟ قال: إلا شعيرات من قفاهُ، إنَّ لُحومَ الأنبياء لا تُبليها الأرضُ، ولا تأكلها السباعُ)) ففي هذه القصة ما فعلهُ المهاجرون والأنصارُ من تعمية قبره لئلا يُفتتنُ به الناسُ، ولم يبرزوهُ للدعاءِ والتبركِ به، فكيفُ يجوزُ التبركُ بمثلِ هذا المدفع المصنوع منْ نحاس وحديدٍ، وطلب النفعِ في جمادٍ لا يبدي ولا يعيد؟ فتعالى اللهُ عما يقولُ الظالمون علواً كبيراً. إذ التبرك طلبُ البركة وقصدها من شيء ما من نفسه، أو جعلُهُ سبباً في حصوله، فالأولَ اعتقادُ أغلبُ المتبركين من أهل هذا الزمان كما هو محققٌ لمن دقَّقَ وحقَّق منْ ذوي العرفان، والثاني هي ذاتُ الأنواط التي قال عنها أهلُ العلم من أصحاب المذاهب الأربعة: أنظروا رحمكُم اللهُ تعالى أينما وجدتُّم سدرةً أو شجرةً أو نحو ذلك يقصدها الناسُ ويعظمُها أحدٌ منهم، ويرجونَ بسببها البرأ والشفاء ويضربون بها الخرق ويعلقونها عليها فاقطعوها فإنها ذاتُ أنواط. كما روى أبو داود والترمذي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله (قبل حُنين ونحن حديثو(٥٥) عهد بكفر وللمشركين سدرةٌ يعكفونَ حولها بها أسلحتهمُ يقالُ لها ذات أنواط، فممرنا بسدرةٍ فقلنا: يا رسول الله أجعلْ لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط، فقال النبي (وهنا كما قالت بنو إسرائيل(٥٦): ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (٥٧)، قال: إنّكم قومٌ لتركُبنَّ سُنَنَ مَنْ كانَ قبلكم))(٥٨).

فإذا كان اتخاذُ هذه الشجرة لتعليقِ الأسلحة والعكوف(٥٩) حولها ليتبركوا بها وينتفعوا بسببها يكون اتخاذها ذلك إلهاً مع الله مع أنهّم لا يدّعونها ولا يسألونها فما ظنَّك فيمن(٦٠) يدعُو خشباً أو حجراً أو حديداً أو يرجو من بركاتها. سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ.

وقد كانت العُزىّ شجرة سمر(٦١) بنخلة لغطفان يعبدونها بدُعاتها لتشفعَ خاصةً لهم فبعثَ إليها رسول الله (خالد بن الوليد فقطعها بالفأس وهو يقولُ:

يا عُزّى كُفرانك لا سبحانك

إنّي رأيتُ الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانةٌ ناشرةٌ شعرها داعيةٌ ويلها واضعةٌ يدها على رأسها فجعلَ يضربها بالسيفِ حتّى قتَلها(٦٢).

وكذلك مناة صخرةً كانت لهذيلِ وخزاعة، وقيل لثقيف. وسُميّت بذلك لما كان يُمنى (أي يُراقُ) عندها من الدّمّاء للتبركِ بها رجاءَ شفاعتها. وأخذوا اشتقاق اسمها من منى(٦٣) الله الأمر إذا قدَّرهُ زاعمين أنَّ الله يُقدِّرُ لهمُ بشفاعتها وإراقة الدماء عندها. ما أرادُوهُ وطلبوهُ، ودَعُوها لتشفع لهم فيه وهذا كلُّهُ عند أهلِ العلم غيرُ خفّيُ على أحدٍ منهُم. ولَعمري إنَّ ما يفعلَهُ الآنَ عَوَامُ المسلمينَ وجَهلتهم في هذا المدفع ونحوِ من تقبيل الجدرانِ، والتبركِ بالحيطانِ، فوقَ ما كان يفعلهُ الجاهليونَ في العُزّى ومناة(٦٤) ويعملون أموراً تقشعَّرُ منها جلودُ المسلمين، وتذوبُ لها أكبادُ الموّحدين، ويتحركونَ بحركاتٍ مخالفة لما عليه المذاهبَ الأربعة المجتهدونَ في الدينِ.

نسأل الله تعالى المنّانَ أنْ يُعيذنا منْ شرورِ أنفُسنا ومكر الشيطانِ، ويوفقنا لما يحبُّ ويرضى وأنْ لا يخيبنا يوم القضاء، إنهُ على ما يشاءُ قدير، وبالإجابة جديرُ. وآخرُ دعْوانا أن الحمدُ لله ربَّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدّ الأولينَ والآخرين وعَلى آلهِ وصحبه أجمعين.

فهارس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المعاني والشمائل والسير، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ.

٣. ابن عبد البّر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، مكتبة النهضة، د.ت.

٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية في التاريخ، بغداد، مطبعة السعادة، ١٣٥١هـ، الطبعة الأولى.

٥ □١٣٧٢هـ–

١٩٥٢م).

٦. البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة: صحيح البخاري، القاهرة، دار الطباعة المنيرية، د.ت، الطبعة الأولى.

٧. جلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين للقرآن الكريم، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٨٤م، الطبعة الثانية.

٨. الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م، الطبعة الأولى.

٩. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس في جواهر القاموس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ–١٩٦٦م.

١٠. عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلاليين، بغداد، مطبعة الشركة التجارية، ١٩٣٥م.

١١. فؤاد البستاني: منجد الطالب، بيروت، ١٩٧٩م، دار المشرق، الطبعة الثالثة والعشرين.

١٢. المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر مع الترجمة الفرنسية، طهران، ١٩٧٠م، الطبعة الثانية.

١٣. محمود شكري الآلوسي: إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد، تحقيق: عدنان عبد الرحمن الدوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٨٢م.

١٤. محمود شكري الآلوسي: المسك الأذخر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٢م.

١٥. النووي، محي الدين يحيى بن شرف: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، بيروت، دار العلم، الكويت، دار وكالة المطبوعات، سنة ١٩٧٠م، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة.

الجرائد والمجلات:

١. جريدة بغداد: لصاحبها عبد الرحمن البناء، السنة الثالثة، لعام ١٩٣٥–١٣٥٣هـ، تصدر في بغداد (يومية).

٢. جريدة العراق: لصاحبها ومديرها رزوق غنام، السنة الثالثة، لعام ١٩٢٢م–١٣٤١هـ، تصدر في بغداد (يومية).

٣. مجلة لغة العرب: يصدرها الأب أستاس الكرملي، ١٩٤١م–١٣٣٢هـ، السنة الثالثة، تصدر في بغداد (شهرية).

الهوامش:

(١) كانون الثاني، عام ١٩١٤، ص٤٠٦–٤٠٧.

(٢) مصدر نفسه: ص٤٠٧–٤٠٨.

(٣) مجلة لغة العرب في كانون الثاني عام ١٩١٤م، ص٤٠٨.

(٤) العراق بين احتلالين الجزء الخامس، ص١٤–١٥.

(٥) محمود شكري الآلوسي وآراءه اللغوية ٣ و ١٥ والإعلام للزركلي ٤٩/٨.

(٦) محمود شكري الآلوسي وآراءه اللغوية ٣١ والمسك الأذفر ٥٢.

(٧) محمود شكري وآراءه اللغوية ٥٢ والمسك الأذفر ٣٨/١.

(٨) هو نجل العلامة أبي الثناء الآلوسي. ولد سنة ١٢٥٢هـ. وكان رجلاً صالحاً مصلحاً، وصفه الأستاذ الأثري بجوزي زمانه في الوعظ. تصدر للتدريس في المدرسة المرجانية ببغداد. توفي يوم الأربعاء ٧/محرم/١٣١٧هـ، ودفن في مدرسته بجانب مرقد مرجان. مسك الأضفر ٥١/١ ومحمود شكري وآراءه اللغوية ٤٠.

(٩) إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد، ص١٤.

(١٠) إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد، ص١٥. محمود شكري الآلوسي وآراءه اللغوية، ص٥٩.

(١١) المسك الأذفر ص١٤-١٥.

(١٢) المسك الأذفر ص١٥-١٧.

(١٣) إتحاف الأمجاد للسيد محمود شكري الآلوسي، تحقيق عدنان عبد الرحمن، ص٣١-٣٢.

(١٤) مجلة العرب، كانون الثاني لسنة ١٩١٤م، الجزء السابع.

(١٥) المسلك الأذخر، لمحمود شكري الآلوسي، تحقيق: د. عبد الله الجبوري.

(١٦) محجته، المحجة: بفتحتين، جادة الطريق، مختار الصحاح مادة (حجج): ص١٢٣.

(١٧) منته، منَّ عليه: أنعم، مادة (منن) مختار الصحاح: ص٦٣٦.

(١٨) ملته: الملة: الدين والشريعة، مختار الصحاح مادة (ملك): ص٦٣٤.

(١٩) الردع: ردعه عن الشيء (فارتدع) أي كفه فكف، مادة مختار الصحاح (ردع): ص٢٣٩.

(٢٠) يرفق: رفق: صار رفيقاً – صاحبه وهنا بمعنى يصحب منجد الطالب (مادة رفيق): ص٢٥.

(٢١) سورة الأنعام: الآية: ١٥٣.

(٢٢) سورة آل عمران: الآية: ١٠٥.

(٢٣) سورة الأنعام: الآية: ١٥٩.

(٢٤) النواجذ، بالذال المعجمة، آخر الأضراس (وسمي ضرس العقل)، مختار الصحاح مادة (نجذ): ص٤٦.

(٢٥) رياض الصالحين – النووي: ص٧٨.

(٢٦) سنن ابن ماجه: ٤/١.

(٢٧) البدايع: جمع بدعة (البدعة): الحدث في الدّين بعد الإكمال، مختار الصحاح مادة (بدع): ص٤٤.

(٢٨) في الأصل: (الأمراء).

(٢٩) السندس: ضربٌ من البرود، رقيق الديباج وفي الحديث أن النبي (بعث لعمر (جبة سندس: تاج العروس، مادة (سندس).

(٣٠) رقَّ: الرَّقيق ضدَّ الغليظ والثخين، مختار الصحاح (مادة رقق).

(٣١) راق: صفا (مختار الصحاح)، مادة (روق).

(٣٢) المأثر: جمع مأثر: وهي المكرمة لأنها تؤثر أي بذكرها قرن عن قرن، مختار الصحاح، مادة (أثر): ص٦.

(٣٣) في الأصل (شارت): وأشار إليه باليد: أومأ، مختار الصحاح مادة، (شور): ص: ٣٥٠.

(٣٤) البنان: البنانة (واحدة) و (البنان) وهي أطرافُ الأصابع، مختار الصحاح، مادة (بنن): ص٦٥.

(٣٥) الطود: الجبل العظيم، مختار الصحاح، مادة (طود): ص:٣٩٩.

(٣٦) الأقوم في الأصل وردت (الأقوام) والقوّام: القويّ على القيام بالأمر، مختار الصحاح، (مادة قوم): ص٦٢٢.

(٣٧) في الأصل (هدايت الله) والصحيح ما أوردناه، والمشير هدايت باشا: مشير الفيلق السادس وصل من نجد إلى بغداد في (٧) جمادي الأولى من حوادث سنة (١٢٩٩هـ-١٨٨١م)، وشارك في جنازة منصور باشا المتوفي سنة ١٨ ذي العقدة (١٣٠٣هـ-١٨٨٥م)، والمدفون في جامع الشيخ عبد

القادر الكيلاني. وفي حوادث سنة (١٣٠٩هـ-١٨٩١م):

- وصل هدايت باشا والي البصرة السابق إلى بغداد في مركبة الموصل في (٧) ذي الحجة وسافر إلى اسطنبول من طريق الموصل في ٩ منه.

- وتوفي في ماردين: وهو الذي تكلم عليه متصرف الإحساء في تقريره، وذمهُ كثيراً وذكر سوء إدارته. تاريخ العراق بين احتلالين، عباس عزاوي: ٥٩/٨.

(٣٨) الصمدانية، الصمد: السيد لأنه يُصمد إليه في الحوائج أي يقصد، مختار الصحاح، مادة (صمد): ص٣٦٩.

(٣٩) ندبة: دعائه للإجابة، مختار الصحاح مادة (ندب): ص٦١.

(×) أصلها (يكلوا) ويكلوا: أمر ذلك الصبي إليه، وعليه وهم لغوي.

(٤٠) الطعام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء مختار الصحاح، مادة (طغم)، ص٣٩٣.

(٤١) فرياً: أي مصنوعاً مختلقاً، وقيل عظيماً: كقوله تعالى: ((شيئاً فرياً))، مختار الصحاح، مادة (فرا): ص٥٠٢.

(٤٢) في الأصل (ملاءٍ)، والملاء: الجماعة وجمعها إملاء، مختار الصحاح مادة (ملاء): ص٦٣١.

(٤٣) المحدّ: المرأة الممتنعة عن الزينة والخضاب بعد وفاة زوجها، ومعناه المكانة الذي لا يصله أحد، مختار الصحاح، مادة (حدّ). (×) الصواب: بايع.

(٤٤) يتناوبونها، الأمر نتناوبه: إذا قمنا به نوبة بعد نوبة، تاج العروس، مادة (نوب): ٤٦٩/١.

(٤٥) صحيح البخاري: ٢٩٢/٢.

(٤٦) في الأصل (ابن) واقعة بين علمين.

(٤٧) صحيح البخاري: ٢٩٤/٢-٢٩٦.

(٤٨) سنن ابن ماجة: ٩٨٢/٢.

(٤٩) البداية والنهاية: لابن كثير: ١٥٣/٤.

(٥٠) في الأصل تكررت هذه الملمة مرتين.

(٥١) سورة البقرة: الآية: ٢٥٥.

(٥٢) في الأصل (ابن) لأنه في بداية سطر.

(٥٣) اللحن: الخطأ في الإعراب، مختار الصحاح، مادة (لحن): ص٥٩٤.

(٥٤) حسبت: الحبس: ضد التخلية، أي ضد أمارات، مختار الصحاح، (مادة حبس): ص١٢٠.

(٥٥) في الأصل (حديثوا).

(٥٦) في الأصل (بنوا).

(٥٧) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٥٨) وقد وردت في البداية والنهاية بهذا الشكل: ((الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ((أجعل لنا إلهاً كما لهم آله))، وقال إنكم قومٌ تجهلون إنها السنة لتركبن سنن من كان قبلكم)): ٣٢٥/٤.

(٥٩) العكوف، عكف على الشيء: أقبل عليه مواظباً، قال الله: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٍ لَّهُمۡ﴾، مختار الصحاح، مادة (عكف).

(٦٠) في الأصل (فمن).

(٦١) سمر: السَّمر والمسامرة: الحديث بالليل، مختار الصحاح، مادة (سمر).

(٦٢) مروج الذهب، المسعودي: ١٥٩/٤.

الاستيعاب: لابن عبد البّر، القسم الثاني: ص٤٢٨.

البداية والنهاية: لابن كثير: ٣١٦/٤.

عيون الآثر: لابن سيد الناس: ١٨٤/٢.

(٦٣) مُني: أي قُدِّرَ، مختار الصحاح، مادة (منا)، ومناة: اسم لصنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة.

(٦٤) في الأصل (المناة).